المشرق

مدافن برج حمّود وسنّ الفيل

للاب راول دبريب اليسوعيّ احد اساتذة مكتبنا الطبي

في شمالي شرقي بيروت على مسافة كيلومترين منها وراء نهرها يوجد في ارض لبنان قريباً من قريتَي برج حمّود وسنّ الفيل بعض مغاور منقورة لدفن الموتى . فهذه المدافن تستحقّ ذكرًا كآثار لبنانيّة قديمة فخصصنا لوصفها بعض صفحات المشرق

اذا وصلتَ الى كنيسة برج حمود المعروفة بار درمط فملتَ من الشمال الى الجنوب قاصدًا سنّ الفيل لا تلبث ان تبلغ الى آكام قليلة الارتفاع ترى في اعلاها على خطّ مستقيم في طول كيلومتر او كيلومترين سلسلة صخور كلسية راقية الى الطور الجيولوجيّ الثاني . وهذه الصخور على شكل صفائح واسعة ممتدّة في بعض انحناء وهي ذات صلابة الّا انّ تحتها طبقات كلسيّة متفتّتة يختلط بها شيء من الحرارى الصلصاليّة البيضاء فهناك أغوار تكوّن بعضها بفعل المياه وحفر بعضها الآخر الاهلون لاستحضار الكلس الحجريّ فصارت كاسراب اتخذوها بعد ذلك كمدافن للموتى

*

واوّل هذه الاسراب موقعهُ على مسافة نحو عشرين مترًا من كنيسة بار درمط كان لهُ مدخلٌ مسدود منذ سنين عديدة . فلمّا عرف المهندس عبد الله افندي طعمه باني البحث عن المغاور المجاورة دلّني الى منفذ آخر تتخلّله الاشواك كان اهل القرية اشاروا بهِ اليه كمنفذ الى سرداب سرّي موقعهُ على جانب الطريق المؤدية من بيروت الى جنينة الباشا واسفل منها بنحو متر ونصف

فلما رأيت هذا المدخل لم أعِرهُ بالًا ثم عدتُ فاعتبرتهُ بتأنٍ فرأيتهُ مركّبًا من الصخر الكلسي الشبيه بالصخور المنقورة التي وجدتها في جوار الناحية فاستنتجت من ذلك انَّ هنـاك ايضًا غورًا يتّصل تقريبًا على خط مستقيم بمدافن قديمة كنتُ وقفتُ عليها. فبعد البحث وسَبر المكان تحقّقت وجود المغارة. ثم عدتُ اليها بعد أيام وسعيتُ في تنظيفها وفتحها فأمكنني الولوج اليها ومعرفة حقيقتها

وكان على الباب ركامٌ من الحجارة والاطلال فبعد نزعها ولجنا الى باطن المغارة فاذا هي قاعة واسعة مربّعة مستطيلة مسقّفة وكلها منقورة في الطبقـة الصخريّة الصاصاليّة المارّ ذكرها . وحول هذه القاعة قد حُفرت ايضًا في الصخر بنظـام ست عشرة غرفة مدفنية صغرى يُدخل اليها من القاعة الكبرى اربع منها في وجه الداخل ثم خمس على يمينهِ وخمس على شمالهِ واثنتان على جانبي المدخل كما ترى في الصورة الاولى (ص ٣٢٣)

والقاعة الكبرى طولها تسعة امتار في عرض سبعة. والغرف الصغرى طول الواحدة منها ثلثة امتار في عرض متر وسنتيمترين. وفي احدى هـذه الغرف الصغيرة على سواء الارض ثلثة أضرحة منقورة على شكل عمودي بالنسبة الى طول الغرفـة وكل ضريح طولهُ متران وخمسة سنتيمترات وعرضهُ ٨٠ س . وعليهِ يكون تكسير مساحة المغارة ١٢٠ مترًا مربّعًا على التقريب

ثم انَّ علوّ كل غرفة يبلغ مترًا ونصف متر اما الاضرحة فعلوّها ٦٠ س. وسقف القاعة الوسطى علوُّهُ متران و٢٠ س فوق الحضيض الحالي وشكلهُ كالعقد فيهِ استدارة خفيفة . وفي وسط السقف حجرٌ بارز اما طبيعي واما صناعي فيهِ ثقبٌ باشروا بعملـهِ كأنهم ارادوا ان يعلّقوا فيهِ شيئًا . وكان لهذا السقف في اقصى بعدهِ عن المدخل كوّتان اعدّهما اصحاب المغارة كما يظهر لتنوير الهواء. الّا انهما قد سُدّتا حديثًا اما فُتحت طريق العربيّات المارّة فوق هذه المغارة على علوّ متر او متر ونصف من سقفهـا . فالعملة سدّوا الكوّتين بحجارة كبيرة يراهما الناظر من داخل القاعة . وفي فصل الشتـاء تسيل مياه الامطار الى المغارة نافذةً اليها من خلال السداد فتصبح شبه بركة كما ترى في الصورة الفوتغرافيّة التي رسمناها بعد امطار شهر آذار الاخيرة

وكانت جدران القاعة الكبيرة مطليّة باللاط صونًا للصخر من التفتّت الّا انهُ بطول

الزمان قد تلف الملاط وتفتّت الصخر وقد بقي شيء من ذلك الملاط تُرى عليه بعض النقوش الخشبية بارزة كيد وهي عبارة عن خطوط متوازية تراها فوق سقوف الغرف الثانوية

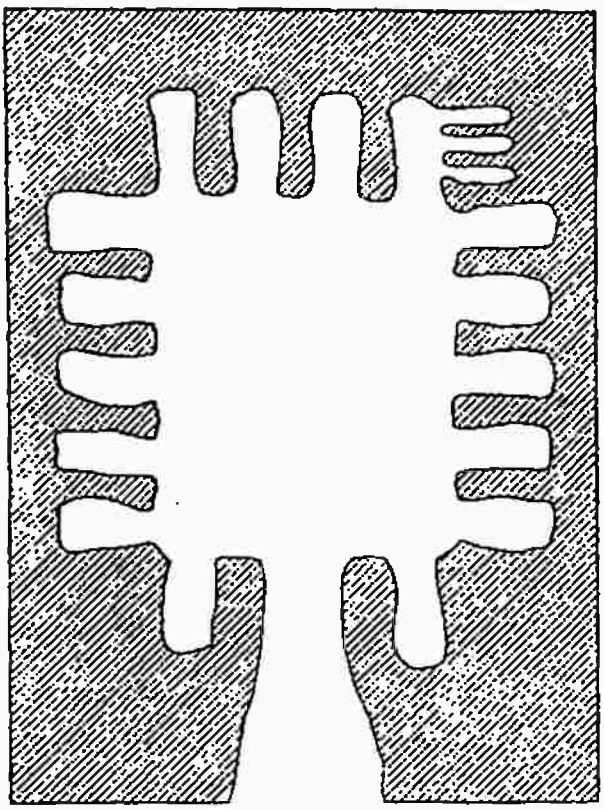

رسم مغارة برج حمود ومدفنها القديم

وقد وجدنا معظم تلك الغرف مملوءة بعظام الموتى فمنها ما كان متراكماً مختلطاً ومنها ما كان مبعثراً بلا نظام خصوصاً في القاعة الكبرى ما يدلُّ على قلّة اكرام نحو رمم القبور

ومن هذه العظام ما هو في تمامه والارجح انّها من جثث دُفنت في المغارة ذاتها لم

يَنالها شيءٌ من أذى تربة المقابر . وبعضها الآخر لاسيما المركومة منهـا في غرفتين او الملحودة في قليل من التراب كانت سابقًا كما يغلب على ظنّنا مدفونة في المقابر ثمّ نُقلت الى هذا المدفن

ويؤيّد ظني هذا ما بلغني من أنّ اكتشاف تلك المغارة قد تمّ اوّل مرّة في عهد متصرف لبنان رستم باشا الذي عُني بفتح الطريق المارّة قريبًا منها فوجدوها ملأى من العظام القديمة . وفي اثناء ذلـك صدر الامر بتحويل مقبرة مار دومط الى محلّ آخر فجُمعت عظامها وجُعلت في جبّانة كنيستها العتيقة . الّا انّ تلك الكنيسة أُخربت بعد مدّة وبُنيت بدلًا منها الكنيسة الحديثة فنُقلت العظام من الجبّانة الى المغارة ثم نقلوا ايضًا أطلال الكنيسة وبقاياها الى ما وراء الطريق فسدّوا بذلك المدخل النافذ الى مدفن برج حمود

ومذ ذاك الوقت اضحت طريق نهر بيروت الى جسر الباشا احد متنزّهات البيروتيين الشائقة فترى كل يوم عجلات الأسر الغنيّة تقطع تلك الطريق ذهابًا وايابًا فيُسمع صوت دواليبها فوق المغارة ويدوي في باطنها دويّ الرعد . ولا خيل لاولئـك المتنزّهين انّ جلبة عجلاتهم تكاد تبعث من سباتهم الموتى المدفونين هنالك

*

دَعنا نواصل السَّير من برج حمّود الى سن الفيل . فبعد خمس دقائق ترى على وجه الارض رؤوسًا ناتئة من الصخور الكلسيّة التي سبق لي عنهـا الكلام . فان تقدّمت قليلًا رأيت في وسطها بابًا وجهتُهُ الى الشرق وما ذاك الباب سوى مدخل المغارة المدفنيّة الثانية التي نزيد وصفها

وهذا المدخل كما تراه في صورتنا (عدد ٣) يُشبه مدخل المدافن الفينيقيّة القديمة التي ترتقي الى العهد اليهودي الروماني ومثلهُ كثير في جهـات فلسطين فواجهتهُ على شكل مربّع متساوي الزوايا منقورة في الصخر قد قُوّر وسطها ففُتح وعلى جوانب الفتح افريز من الحجر لتُطبَق عليه الصفيحة الكبيرة العمودية التي كانوا يتّخذونها كباب

وبقرب هذا الصخر صخور أُخرى تُرى حولها وفي مقدّمتها منحوتة ايضًا وذلك دليل على انّ هناك وُجدت بناية شيّدوها في مقدّمة المدفن كأكثر أقيم تذكارًا للموتى . ولعلّ المغارة كانت ممتدة الى دار أُخرى مأهولة . وهذا عندنا الارجح لأنّنا وجدنا في هذا

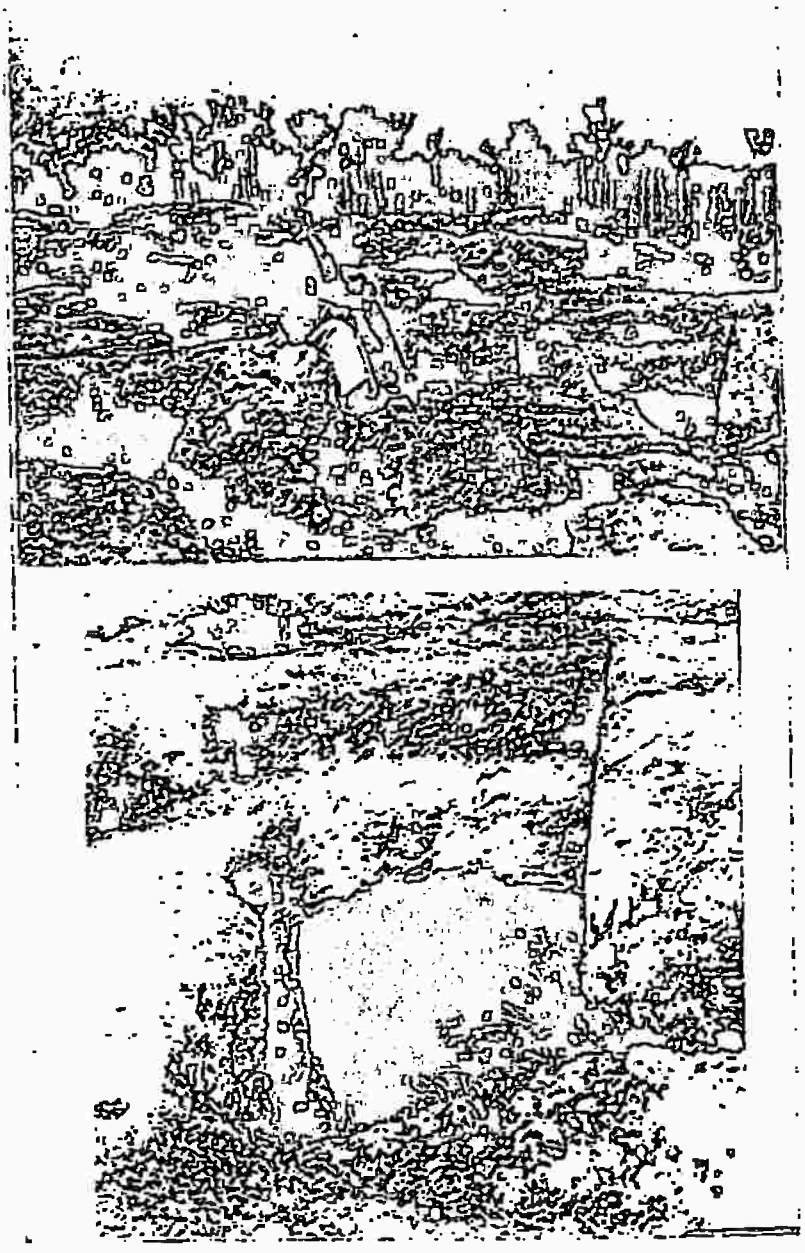

صورة المداخل الى مدافن سنّ الفيل

الأكمة المشرفة على سنّ الفيل ستّة بيوت غيرها قديمة منقورة في الصخر حول المدافن او قريباً منها كأنّ قدماء الاهلين كانوا يدفنون موتاهم بجوار مساكنهم او في داخلها .

وهذه المغارة قياسُها ستّة امتار طولًا في مثلها عرضاً ولا يرتفع سقفها عن مدخلها الّا ارتفاعاً قليلًا . وهو كالسقف الذي سبق ذكرهُ الّا انّهُ يميل في انحناء حتى يبلغ الحضيض كأن الذين حفروا هذه المغارة تتبّعوا تركيبها وانحناءها الطبيعي الذي هو في هذا المكان اعظم من سواه

امّا ارضها فكأرض المغاور الأخرى المجاورة لها تتحدّر الى اسفل والظاهر انّ الفلّاحين كانوا اتخذوها كبيت لدواجنهم فتراكمت على الحضيض ازبالها وقاياتها حتى لم يبقَ شيءٌ من آثار القبور القديمة . ومع هذا ترى على جدرانها من الجانبين اطراف الاجران التي كانت توضع فيها اجساد الموتى

*

وعلى مسافة بعض الامتار من هذه المغارة على المنعطف الغربي موقع مدفن ثالث وهو داخل ساحة مسيّجة لاسكندر افندي ابي عكر صاحب كخانة سنّ الفيل لا يُرَى في الخارج من امرهِ شيء . فتمرُّ بجوش كانوا قديمًا يصطنعون فيهِ الكلس المتصلّب في الماء وعلى يمينك اتون صغير مُهمل منذ عهد قديم وامامك رحًى كانوا يدقّون فيها قطع الكلس لكنّ تركتها بطلت منذ سنين طويلة وعن شمالك بناية صغيرة من الواح كانت مخزنًا . وفي اقصى الحوش باب حديث البناء يظنّهُ الناظر مدخلًا لآخور او لقبو

فدخلنا في هذا الباب واذا امامنا منظر مهيب ادهش عيوننا فبدلًا من الآخور او القبو الذي كنّا في انتظارهِ لاحت لنا مغارة عظيمة واسعة الارجاء مرتفعة السقف منوّرة بانوار خفيفة اخذ منظرها بمجامع قلبنا . ولعمري لو رأينا مغارةً كهذه في احد كهوف لبنان وفي باطن اغوارهِ لما كان اخذ منّا العجب مأخذهُ كما جرى لنا عند ولوجنا في هذه المغارة التي انكشفت لعياننا على بغتة في ارض لا تكاد ترتفع عن سواه الحضيض

وقياس المغارة ٢٨ مترًا في الطول وعرضها ستّة امتار . وسقفها اعلى من سقوف المغاور السابقة لكنّهُ يختلف في ارتفاعهِ فتارةً يبلغ ستّة امتار وتارة ينحني حتى لا يزيد على اربعة امتار وربّما قلّ عن ذلك . وهذا السقف الطبيعيّ البالغ السمة تسندهُ في وسطهِ سارية ويركز في اطرافهِ على الصخر الاصمّ الذي لم يُنحَت عند حفر التور

ومن اعتبر هذا الكهف العظيم حسبهُ مغارة سانح او منزل متعبّد مما ألفهُ قدماء النساك في جبال لبنان وغيره . الّا انّ هذه المغارة لم يُبنها سكّانها على هيأتها الأولى فانهم سعوا في تحسينها وهندستها وقرروا جدرانها وازالوا تموّاتها وساووا اوقابها ثم جعلوا على جدرانها ملاطاً ليقيها من آفات الزمان وكذلك مهّدوا حضيضها ووطّأوهُ بمركّب من الحوّارى والتربة الصاصاليّة فصار المكان كحجرة رحبة اتخذها اصحابها في توالي الازمان كمحل ثم كمحلّ صناعة لاستحضار صفائح البلاط ثم كمنزل لتربية القزّ واخيرًا كآخور وصوان للعجلات . وقد بقي من هذا الكهف سقفهُ على بساطتهِ القديمة وهيئتهِ الاثريّة شهادةً على اصله

قلتُ ان الباب الذي دخلنا منهُ حديث العهد الّا انّ مدخل المغارة لا يزال سالمًا لحُسن الطالع وهو على صورتهِ الاصليّة بعد ترميمهِ نوعًا وهو مع ذلك في غاية الشبه لمدخل المغارة السابق ذكرها فانهُ على هيئتهِ التربيعيّة راقيستهِ وقد نُقر مثلهُ في الصخر وجُعل لدائرتهِ الزيز ليسندوا اليهِ صفيحةً كصفيحتهِ عموديًا . وفي هذا الشبه دليل قاطع على انّ هذه المغاور من اصل واحد جُعلت لغاية واحدة . وما هذه المغارة الّا مدفن قديم وان فُقدت كل آثارها الدالّة على المقصود منها

وفي قعر هذه المغارة كما في مغارة برج حمّود كوّة واسعة لدخول الهواء ومن المحتمل انّ هذا الثقب قد وسّعهُ اصحاب المحلّ فجعلوهُ منفذًا مستديرًا ليجري اليهِ الهواء من الخارج ويستضيء ساكنوهُ باشعّة الشمس

*

وقبل ان نختم هذه السياحة الاثريّة فلنلقِ النظر الى المدافن المتعدّدة التي ترى في اعالي سنّ الفيل . فما يقال عنها بالاجمال انّها كلّها على طرز واحد تكاد اقيستها تتساوى وبعضها مداخل لا يرتفع اعلاها عن حضيض الارض الّا انّها مسدودة ما خلا مدفنين (انظر صورتها ع ٥ و ٦) نُزّلت اطلالها فتس عليهِ بقيّة المدافن . فترى المدخل مربّعًا يكاد يتساوى طولًا وعرضًا . والمدفن مسقّف فيهِ عادةً ثلاثة اجران لثلاثة من الموتى نُقرت في الصخر على ثلاثة جوانب الغرفة وجهة الباب فارغة وكان الباب يُغلق بصفيحة من البلاط عموديًا كما تدلُّ عليه الثقوب الباقية على دائرة المدخل . وهذه الغرف تكتنفها عادةً منازل يسكنها الناس . ولذلك قد سبق لنا القول بانّ هذه الاقبية

كانت مدافن اهليّة كما يقرّ بذلك الاثريون في حكمهم عن مدافن فلسطين . امّا عهد هذه الآثار فانّهم يرقّونهُ الى عهد مملكة اليهود والفتح الرومانيّ

وعلى طول المشارف الصخريّة التي تمتدّ عند سنّ الفيل تُرى بقايا قرية قديمة فهناك على مسافة كيلو متر بن آثار منازل منقورة في الصخر كانت تُرحل بالناس بينها اقبية دفنوا فيها موتاهم . وهناك ايضاً صهاريج كانوا يجمعون فيها مياه الامطار بعضها كصهاريج الرومان على شبه زجاجات الخمر والقوارير مملّطة بالكلس المتصلّب في الماء وبعضها مربّعة تختلف اقيستها وكثيرًا ما هي مطويّة في باطنها . وترى هناك بعض القبور المكشوفة على شكل النواويس نُقرت في الصخر الّا انّ اطباقها قد تلفت . وفي كثير من هذه المساكن حُفَر مستديرة قطرها من متر ونصف الى ثلاثة امتار منقورة ايضاً في الصخر كانوا يجعلون فيها المراجل او يركّبون المعاصر

وكل هذه الآثار قديمة بلا مراء غير انك لا تجد عليها كتابةً او رسماً او دليلًا ما تستند اليه لتعريف اصلها او زمانها بضبط . وممّا يرشدنا الى ذلك غير الادلّة السابق ذكرها من صورة المداخل وهيئة الصهاريج ما يُشاهَد على طرف تلك القرية القديمة جنوبًا فهناك فضاء واسع ترى فيه قطعاً من الخزفيّات الرومانيّة كالخزفيّات المكتشفة في اطراف بيروت او في جهات الرمل المجاور لها

وزيادة على ما مرّ بك دليل آخر على زمن تلك المقابر ما يوجد فيها من قطع الحجريّات التي ألفها الرومان القاطنون في فينيقية . اما ملاط الصهاريج المذكورة الشبيهة بالقوارير فانهُ كملاط الصهاريج الرومانيّة المكتشفة في هذه الجهات . وكذلك كعوب الفسيفساء فانهُ يوجد منها كثيرٌ في الاماكن التي نبحث عنها وهي كقطع الفسيفساء التي كان الرومان يبلّطون بها منازلهم في هذه البلاد وفي رمال بيروت ونواحي المدينة كثير منها

فكلّ هذه الدلائل تؤدي بنا الى القول الراجح بانّ الآثار الموجودة في مشارف سنّ الفيل راقية الى عهد دولة اليهود وفتح الرومان . ومن هذه الآثار المقابر التي وصفناها آنفاً فلا بُدّ اذًا من ترجيح كونها من الوقت عينهِ

ثم انّنا نعرف ان المدافن الاهليّة كانت تعمّ جهات لبنان الّا ان الاغوار التي اتّخذوها لهذه الغاية هي اقدم عهدًا فدفنوا موتاهم حيث سبق غيرهم الى حفرها . وكثيرًا

ما جمعوا تلك الاغراض كمستودع للعظام مما ذكره من المقابر او اقبية الكنائس . كما ذكرنا في وصف منارة برج حمّود . ولا جرم انّ اكتشافات جديدة تزيدنا افادة عن ذلك وتؤدي بنا الى تحديد زمن هذه الآثار القديمة

وما لا ينكره أحد انّ موقع برج حمّود وسنّ الفيل بين لبنان ونهر بيروت لمن احسن المواقع التي يستطيع سكناها البشر لطيب هوائها وبرودة نسيمها حتى في فصل القيظ فلا ريب انّ الناس استوطنوها منذ سالف الأيام . وعلى ظننا ان بني آدم اتخذوا هذا المكان فاستعمروه قبل الزمن التاريخي في طور الظرّان والدليل على ذلك ما يوجد في منعطفي روابيه من أدوات الظّران كالفؤوس الحجريّة والمقاطع والشفار والنصال المحدّدة والمساحي التي تُرى منبثّة في تلك الجهات فناهيك بهذا شاهدًا على قدم سكنى الانسان في موقعها . والسلام

سلسلة اساقفة الملكيين

لحضرة الاب الخوري الفاضل الاب كيرلس شارون (تابع لما سبق)

انظر السنين السابقة من المشرق

٧ قارا

قارا مدينة قديمة في سوريّة المجوّفة وراء الجبل الشرقي شمالي النبك تبعد ثلاث مراحل عن دمشق كان لها كرسيّ اسقفيّ وقد ذكرها لوكيان في الشرق المسيحي (١ الّا انّهُ لم يثبّتها فدعاها *Ecclesia Comes Charrarum* . ونسب اليها اساقفة كانوا على غيرها كاساقفة لارسا وحرّان ومن مزاعمهِ انّ اوّل اساقفة قارا جيرنسيوس وقد بيّن گلزر (Gelzer) في تأليفهِ عن آباء المجمع النيقاويّ انّ هذا كان اسقفًا على لارسا وكذلك روى لوكيان بين اساقفة قارا المسمّى يوحنّا وقد اشتبه عليهِ اسم كرسيهِ الاسقفي فرواهُ على صور شتّى لا يمكن تحقيقها . كما انهُ جعل في عداد اساقفة قارا احد مشاهير الكتبة الملكيين ثاردورس المعروف بابي قرّة وانّما كان هذا كما ثبت اليوم اسقفًا على حرّان

١ (دادا) لعلّهُ الاسقف الوحيد الذي ذكرهُ لوكيان فنستطيع ان ننسبهُ الى

١) اطلب كتابهُ (Lequien : *Or. Chr.*, II, 849—850)